عصور أدبنا العربى وأندها غموضا ، وهى المناطق التى قلّ شعر شعرائها ممن غمرتهم حياة الصحراء المجدبة الشاقة ، فأعلنوا تمردهم على الأنظمة القبلية النمطية باعتبارها البُنى الأساسية التى شكلت حياة المجتمع الجاهلى ، ومن تم امتد تمردهم إلى بنيان القصيدة الجاهلية ذاته ، فحملوا معاولهم قاصدين هدمها استكمالاً لصورة نفورهم القبلى ، وبحثا عن صيغة من صيغ التوازن فى نمط العيش ونمط الفن على السواء .

وكأن الباحث قد أصرّ على الانتصاف لتلك الطائفة التى لاقت عنتا وظلماً مرة بقياس المجتمع ، ومرّات أُخر بقياس الدراسين والنقاد ، فوقف عنده طويلاً مفتشا عن مقومات حياتها ، ومتأملا معالم منها ، وكاشفاً ملامح التجديد التى صدر عنها أقطابها ، الأمر الذى دفعه إلى تعدد قراءات مساعدة فى حقوق الدراسات النفسية والاجتماعية بحثاً عن دوافع الانشقاق على الجماعة ، أو إعلان التمرد عليها ، أو إيثار الاغتراب عنها ، أو الإصرار على ترشيح منطق الرفض والثورة منهجا من مناهج الحياة ، وسبيلا من سبل البقاء.

فى هذا السياق جاءت دراسة شعر الصعاليك بحثا عن الجديد ، وخروجا عن المألوف، وتجاوزا للنمطى المطروق ، ورفضا لتكرار الدرس المستهلك فى زحام المناطق السهلة الواضحة ، وإن شئنا الدقة فهو البحث عن استكمال صورة الدرس الأدبى من خلال إبراز ما نقص منه ، حيث تجاهلته ذاكرة الدارسين ، أو طواه الزمن فى غياهب النسيان ، فظل مجهولا غائما ، وربما - ودون مبالغة أو حماس - بقى مجهولاً لولا تلك الدراسة الخاصة بشعر الصعاليك (٢)

وعلى مستوى المنهج أعدّ الباحث عُدّته من واقع قراءاته فى الدراسات المتعددة فى علم الاجتماع ، وعلم الجريمة ، وعلم النفس ، مما يسهم فى كشف جوانب الشخصية عبر مستوياتها الوراثية أو المعرفية أو النفسية أو الاجتماعية والأخلاقية ، ليتخذ من عالم الصعلكة حقلاً للتطبيق ، ومجالا